أساسيات التخطيط العمراني
في المدن العربية القديمة

تتمتع المدن العربية القديمة بطراز معماري فريد ، يتميز بالتنوع والشمولية ، ومحاكاة البيئة ، والتكيف مع الواقع ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على عقلية هندسية متميزة امتلكها المعماري العربي ، وعلى حس هندسي مرهف ، وتفاعل حضاري فذ مع البيئة المحيطة .

واللافت للنظر في التراث المعماري العربي أنه لم يكن ذا طابع واحد ، بل اتسم بتنوعه وتطوره بمرور الزمن ، فالمدينة المطلة على البحر مثلاً لها صفات معمارية خاصة تختلف عن نظيرتها الواقعة في السهول أو تلك الرابضة على سفح أحد الجبال .

كما أن هناك تطوراً ملحوظاً في التخطيط العمراني من فترة إلى أخرى ، فالعمارة في العصرين الأموي والعباسي ، لها سمات تختلف عما كانت عليه تلك العمارة إبان العصور التالية ، كما أن العمارة إبان العهد العثماني اكتست نوعاً من التفرّد طبع معالم عدد من المدن كالمآذن والتكايا والقبب والمنازل .

شمولية حضارية :

لم تقتصر الإبداعات العلمية العربية على جوانب حضارية محددة ، كعلوم الشريعة واللغة العربية ، بل برع الفكر العلمي العربي في ميادين

شتى شملت جميع العلوم والمعارف السائدة حينذاك ، بل إن الحضارة العربية الإسلامية أبدعت علوماً جديداً لم تعرفها الحضارات السابقة .

وهكذا وجدنا في سجلات التاريخ الزاهر علماء أفذاذ في الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء والطبيعة وعلم الحيل (الميكانيك) والطب والصيدلة ، إضافة إلى التخطيط الهندسي المعماري .

ويحفظ التاريخ في ذاكرته أسماء عدد كبير من المعماريين العرب والمسلمين يستحقون أن يطلق عليهم لقب مهندسين معماريين شموليين ، نظراً لما تميز به فكرهم من إدراك معرفي وحسٍّ هندسي ، ورؤية ثاقبة وبصيرة بارعة .

معالم حضارية :

وتشير المصادر التاريخية إلى ما كانت تتمتع به المدن العربية والإسلامية من تخطيط دقيق للبيوت والأحياء والأسواق والمساجد وأمكنة رمي النفايات ، إضافة إلى المشافي والقلاع والحصون .

وكان موقع المسجد يختار بدقة متناهية بحيث يتوسط أحياء المدينة ، وتكون في جوانبه ساحات صغيرة بحيث يدخله الضوء من نوافذه المتعددة ، كما تعلو مئذنته لترى من مكان بعيد ، ويستدل الراكب على وجود مدينة أو بلدة في ذلك المكان ، كما كان مكان الأسواق يختار بدقة ، وتفصل بين الأسواق لئلا يتضرر أحدها من عمل الآخر ، ولئلا ينتقل حريق مثلاً من سوق الحدادين إلى سوق الأقمشة أو الخياطين . . . إلخ .

والأمر اللافت أيضاً في المدن العربية والإسلامية القديمة هو اختيار موقع المشفى ، حيث كان يبنى في أكثر أمكنة المدينة نظافة وأقلها تلوثاً ، وكان المهندس المعماري يعاين أمكنة عدة في المدينة (معتمداً على

معرفة اتجاه الريح ، ووضع قطع قماش تحوي أغذية لمعرفة مدة فسادها) ثم يعتمد على المكان المناسب ، ويحدد موضع البناء وشكله وتصميمه الخارجي والداخلي .

وتذكر المصادر التاريخية أيضاً أن المدن كانت تحوي أمكنة خاصة لرمي النفايات والمخلفات ، يتم اختيارها بحيث تبعد عن المدينة مسافة محددة ، ويكون اتجاه الريح فيها إلى خارج المدينة كي لا تؤذي سكانها بروائحها ولا تنشر بينهم الأمراض ، وكانت هذه النفايات توضع في حفر خاصة ، ثم تولى شؤونها ـ في العصور المتأخرة ـ أشخاص تعينهم جهات محددة في الدولة .

ولم يهمل التخطيط العمراني العربي القديم بناء القنوات والسدود والجسور والأزقة بين البيوت وبين المحال التجارية إضافة إلى بناء الأسوار المحكمة والقلاع الشاهقة والحصون المنيعة حفاظاً على المدينة وحماية لها من عوادي الأيام .

وهكذا تميزت معظم المدن العربية والإسلامية القديمة بتخطيط عمراني متميز ، أسهم في تسيير أمور أبنائها بسهولة ويسر ، وتخفيف حدة الأمراض والحرائق والتلوث ، إضافة إلى تأمين حمايتها ومنعتها .

* * *